دراسات تاريخية المجلد11 العدد 01 السنة 1445هـ/2023م ص ص463/ 473

مجلة دراسات تاريخية

ISSN: 9741-2352 EISSN :6723-2600

إصلاح التعليم الزيتوني بتونس بين دعاة التجديد، والتيار المحافظ 1900-1956

The reform of Zaytouni education in Tunisia between advocates of renewal and the conservative trend 1900-1956

مشراوي جمال الدين
Mechraoui Djamel Eddine
جامعة بن خلدون (تيارت-الجزائر)
مخبر الدراسات التاريخية والأثرية في شمال إفريقيا
djameleddine.mechraoui@univ-tairet.dz

كلاخي الياقوت
Kalakhi Yakout
جامعة بن خلدون (تيارت-الجزائر)
مخبر الدراسات التاريخية والأثرية في شمال إفريقيا
Yakout.kalakhi@univ-tiaret.dz

الارسال: 23/08/10 القبول :23/09/06 النشر:24/01/05 المرسل: مشرواي جمال الدين

الملخص:

سنعرض في هذا العمل قضية إصلاح التعليم الزيتوني بتونس بين دعاة التجديد، وشيوخ الزيتونة المحافظين، ذلك أن مسألة التعليم الزيتوني حضيت باهتمام كبير من شيوخ الجامع والمصلحين والساسة وحتى البايات، كون الجامع الأعظم يمثل هوية الحاضرة التونسية وشخصيتها، ضف لذلك دوره الفعال في إنتاج المفكرين والعلماء ودوره في الحفاظ على العلوم الإسلامية والثقافة العربية، لذلك سعى رواد الإصلاح لتطويره ومعالجة الخلل الذي أصاب أروقته، غير أن الشيوخ المحافظون رأوا أن أي محاولة للقيام بهذا المشروع هو مساس بالقيم والمبادئ الإسلامية ومحاولة تغريب البلاد، فتعرضوا لكل تلك المحاولات، لذلك نجد أن العملية الإصلاحية لم تكن وليدة اليوم أو الشهر بل بدأت منذ القرن التاسع عشر مع البايات الثلاث "أحمد ومحمد والصادق" والشيخ خير الدين التونسي، ثم تواصلت مع القرن العشرين مع بروز الشيخ طاهر بن عاشور وطال بها الحال بسبب تلك المعارضة، لينتهي الجدل والصراع بين المذهبين في الأخير لصالح دعاة الإصلاح من خلال الممارسات العملية التي استطاع بن عاشور تحقيقها بفضل منصبه المرموق ومكانته الاجتماعية

الكلمات الدالة : الإصلاح، التعليم الزيتوني، الطاهر بن عاشور، التيار المجدد، التيار المحافظ.

Abstract

In this work, we will present the issue of reforming Zaytouna education in Tunisia between the advocates of renewal and the conservative sheikhs of Zaytouna, because the issue of Zaytouna education received great attention from mosque sheikhs, reformers, politicians, and even beys, since the Great Mosque represents the identity and personality of the Tunisian metropolis, in addition to its effective role in producing thinkers and scholars. And its role in preserving Islamic sciences and Arab culture, so the pioneers of the reform sought to develop it and address the imbalance that afflicted its halls, but the conservative sheikhs saw that any attempt to carry out this project is a violation of Islamic values and principles and an attempt to Westernize the country, so they were subjected to all these attempts, Therefore, we find that the reform process was not the result of a day or a month. Rather, it began in the nineteenth century with the three beys "Ahmed, Muhammad and al-Sadiq" and Sheikh Khair al-Din al-Tunisi, then it continued with the twentieth century with the emergence of Sheikh Taher bin Ashour and the situation prolonged because of that opposition, to end the controversy. And the struggle ended in favor of the advocates of reform through the practical practices that Ben Ashour was able to achieve thanks to his prestigious position and social status

Keywords. Reform, Zaytouni education, Al-Taher bin Ashour, the renewed trend, the conservative trend

مقدمة:

لما كان التعليم هو العمود الفقري للأمم، والأساس الذي تقيم عليه بنيانها، كان هو أول ما قامت الحركات الإصلاحية شرقا وغربا باستهدافه وإصلاحه بما تتقضيه معطيات العصر، ونفس المسار سارت عليه الحركة الإصلاحية بتونس، خاصة وأن الحاضرة التونسية تتواجد عل صرح علمي يستقطب طلبة العلم من مشارق الأرض ومغاربها ألا وهو جامع الزيتونة، فكان ماكان من الإجراءات الرسمية التي أقرتها المملكة بإيعاز من رجال الإصلاح، إضافة للجهود التي بذلها شيوخ الزيتونة ورجالات السياسة محاولة منهم عصرنة التعليم بالجامع الأعظم وتغيير مناهجه وتطويره أكثر، غير أن المبادرات التي بذلها الذين سبق ذكرهم واجهت جملة من الصعوبات تمثلت أساسا في معارضة التيار المحافظ من بعض شيوخ الزيتونة الذين رأوا أن كل تجديد وتغيير في المناهج التعليمية هو مساس بالدين الإسلامي وضرب لمبادئه، فتوجت الساحة العلمية بصراع فكري وجدل قائم بين التيارات خلال القرن العشرين بين مجدد ومحافظ، لذلك سنقدم في هذا العمل أهم الإصلاحات التي تبناها زعماء التيار المجدد من شيوخ وأساتذة ومفكرين لتغيير واقع التعليم بالزيتونة وإزالة الجمود الذي طاله، والواقع أن عملية الإصلاح لم تكن لتطرح أصلا لولا وجود الفساد في أروقة الجامع، وبعض الخلل الذي أضر به، فقد كان التعليم بالجامع تعليم كتب أكثر منه تعليم فنون ومواد، والاهتمام بشكل أساسي بالحفظ والإظهار يقول في ذلك الشيخ محمد الحبيب ابن الخوجة[1]:" ...**ولا شك في كون هذه الطريقة لا تصلح في مراتب الدراسة كلها، لأن الطالب يحتاج معها لملكتي الفهم والنقد لتتفتق مواهبه وتتسع مداركه"** وانتقد أيضا أوقات التدريس التي كانت بحاجة لإعادة نظر، كونها كانت خاضة للظروف والمصالح والشخصية للشيوخ والطلبة، فكانت الدروس تلقى في الأوقات التي يتفقون عليها[2]، لذلك وعلى ضوء ما سبق ذكره نقول: إلى أي مدى استطاع رروواد الإصلاح بتونس ترسيخ الفكر التجديدي وتطبيقه على واقع التعليم بالزيتونة؟ وفي ما تمثلت مواطن الإختلاف بينهم و بين التيار المحافظ من قضية إصلاح التعليم؟

سنحاول الإجابة على هذه التساؤلات لنصل في الأخير إلى معرفة قواعد الفكر التجديدي الإصلاحي ومبادئه، ونستنتج مواطن الإختلاف بينهم وبين معارضيهم، كما سنعرض في أسطر محاولات الشيخ طاهر بن عاشور لإصلاح التعليم الزيتوني، كونه أبرز وأهم من سعى في هذا الباب، ودراستنا هذه ستكون عبر المحاور الآتية:

1. نبذة عن المحاولات الإصلاحية للتعليم خلال القرن 19م:

كان جامع الزيتونة منذ عهود موطنا للفكر والمعرفة إذا تخرج منه ثلة من العلماء الكبار عبر التاريخ، كابن خلدون وبن عرفة، وحديثا نجد بن أبي الضياف ومحمد بيرم الخامس والخضر الحسين ومحمد الطاهر بن عاشور الذين كان لهم الفضل في الحركة الفكرية والإصلاحية بالبلاد التونسية، وكان التعليم بالجامع

يفقد الطابع التنظيمي المعاصر فلم يكن له قانون يحدد برامجه وأوقاته، وينظم المراتب وشؤوون التسيير...، إلى غاية عهد المشير أحمد باي الذي أصدر منشورا في 1842 يحدد فيه خطط الأساتذة ورواتبهم ونظام التدريس والعطل، كما وضع هيئة التدريس تحت مراقبة شيخي الإسلام المالكي والحنفي، والقاضيين الحنفي والمالكي واهتم بالمكتبة[3]، لكن ما كان يعاب على الجامع أن الإصلاحات التي كانت تصدر في شأنه لم تُأخذ على محمل الجد ولم تطبق واقعيا، وهذا لتمسك التيار المحافظ بكل ما هو قديم، لذلك نجد كثرة القوانين الإصلاحية من البايات والمبادرات الإصلاحية من الشيوخ المقتنعين بضرورة التغيير.

وفي عهد المشير محمد الصادق باي أصدر منشورا في 27 سبتمبر 1870، بمبادرة من خير الدين التونسي، يكلف فيها أربعة من مشايخ الزيتونة بوضع تقرير عن وضعية وحالة التعليم بالجامع، وهم الشيخ محمد العزيز بوعتور، والجنرال الحسين العضد الأيمن للشيخ خير الدين، والمؤرخ أحمد بن أبي الضياف، ومحمد البكوش المستشار بالوزارة الكبرى، أما الشيخ بوعتور فقد جاء في تقريره أن كل شيء على ما يرام والأمور كلها تسير وفق الطريق الصحيح، في الوقت الذي انتقد فيه الجنرال حسين الوضعية ورأى ضرورة المباشرة في إصلاح الوضع واستصعب إمكانية تحقيقه في يوم أو شهر أو سنة، ومنه جاءت إصلاحات الصادق باي بإصدار ما يعرف بالقانون الصادقي-أو الخيري نسبة لخير الدين- في ديسمبر 1975، والذي جاء لإصلاح التعليم بالزيتونة وأُنشأت على إثره مكتبة وتم إصلاح أخرى وغيرها من الإجراءات.[4]

كما جاءت فكرة إنشاء مدرسة عصرية حققها خير الدين التونسي ووزير المعرف الجنرال حسين، وثلة من المصلحين، والذين رؤوا صعوبة تغيير الواقع التعليمي بالجامع الأعظم، فأسسوا مدرسة الصادقية التي صدر قانونها في 13 جانفي 1875، اهتمت بتعليم العلوم العصرية والدينية.[5] وعلى العموم لم يكن إصلاح التعليم الزيتوني وليد القرن العشرين إنما سبقه محاولات كثيرة وهذا ما أردنا أن نشير له من خلال الماضي القريب لتلك الفترة.

2. تأسيس الجمعية الخلدونية ودورها في مجابهة التيار المحافظ:

بقى التعليم على حاله؛ ومنه ستأتي مبادرة أخرى أواخر القرن العشرين لمحاولة عصرنة التعليم والخروج من النمط القديم التقليدي ومواكبة التطور العالمي، وكان رائدها هذه المرة المصلح البشير صفر الذي بادر لإنشاء المدرسة الخلدونية –ونجدها باسم الجمعية الخلدونية أيضا- في عام 1896، والتي أدرجت في مقرراتها دروسا مكملة لما كان يتلقاه الطلبة في جامع الزيتونة، إذا فقد كان هذه الجمعية موجهة بالأساس إلى طلبة الزيتونة، حيث عملت على تعليم التاريخ والإقتصاد السياسي والفيزياء وعلم الإدارة، والرياضيات والفرنسية، ومن خلال برنامجها الإصلاحي نكتشف أن الفكرة الأساسية عند رجالاتها هو ربط الماضي الإسلامي لتونس بواقعها المعاصر[6]، وقد تلخصت أهدافها في مايلي:

- تدريس وتطوير العلوم العصرية للطلبة التونسيين: تاريخ، جغرافيا، فرنسية، إقتصاد سياسي، الفيزياء، الكيمياء...

- التسهيل للطلبة التونسيين إكمال مستواهم الدراسي.
- تشجيع تأسيس المكتبات العلمية.
- إنشاء مجلة المعارف، وإحداث تقارب بين المعربين والمفرنسين، من خلال هذه النشرية الإعلامية تسعى خلق تواصل بين الحضارة الإسلامية والفرنسية[7]

تولى إدارتها بالإنتخاب محمد القروي ثم تلاه البشير صفر ثم محمد الأصرم، وكانت الدروس تلقى فيها مساء، من الساعة الخامسة والنصف إلى الساعة الثامنة ليلا لئلّا تزاحم ساعات التدريس فيها دروس التعليم بالزيتونة[8]، وافتتحها الشيخ سالم بوحاجب الزيتوني النشأة والإصلاحي النزعة، بخطبة نوه فيها لضرورة التعلم وأهمية العلوم التي تسعى الجمعية لبثها في الطلبة، وقد قام بإلقاء الدروس فيها أساتذة من خريجي الصادقية وغيرها، وحامل الراية فيهم كان البشير صفر، ومن هؤلاء الشيوخ: محمد الأصرم، محمد بلخوجة، عبد الرزاق الغطاس، الحكيم دنقزلي، الشيخ حمودة تاج، أقبل العديد من التلاميذ لحضور دروس هذه المدرسة غير ان الكثير منهم تخلف إلى حين تغير برنامج امتحان التطويع[9] بالجامع الأعظم فصار من مواد الإمتحان أسئلة في الجغرافيا والتاريخ والحساب، والمساحة ومن حينها أصبح يحضر للجمعية أغلب التلاميذة خاصة السنوات اللذين اقتربوا من الحصول على شهادة التطويع[10].

كانت الخطبة الافتتاحية بمثابة البساط الذي سارت عليه الجمعية، إذ أجاب فيه الشيخ المصلح سالم بوحاجب عن إشكالية مهمة كانت محل خلاف بين الأوساط الفكرية وهي (هل الإسلام ملائم للعلم؟) فأجاب على ذلك بالإيجاب، وهذا الأمر يعكس لنا الموقف السلبي الذي اتخذه الزيتونيون ذوي النزعة المحافظة من الجمعية إذ اعتبروها آنذاك خطرا على القيم الإسلامية، فكان على مسيري الجمعية مناهضة هذه الإدعاءات وحث الطلبة على متابعة دروس الخلدونية، وعموما جاء خطا بوحاج في هذا الباب، للرد على الادعاءات وكان له أثر في النفوس، وبسبب البرنامج الذي سطره أساتذة الجمعية والمواد التي كانت تدرس بدأ الفارق يتقلص بين العقلية المحافظة والعقلية المعاصرة، و بذلك امتلك التلاميذ ملكة النقد والتحليل والتفتح وهكذا يتدعم التيار الإصلاحي أكثر، وهو الأهدف الأسمى الذي تسعى الجمعية الخلدونية لتحقيقه.[11]

قدّم الأستاذة الخلدونيون قضايا عصرية جديدة وهذا ما جاء في دروس العلوم الإنسانية التي عرضوا من خلالها حالة الإنحطاط التي تعيشه البلاد، وسبل الخروج منها، وفي الآن نفسه عرض التطور الذي تعيشهة الحضارة الغربية، ليصلوا بالتلميذ في الأخير إلى ضرورة اقتناء العلوم العصرية للخروج من غيابات التخلف[12]، وكثرت الدروس والمحاضرات بالجمعية وهو الأمر الذي جلب لهم عدواة شيوخ الزيتونة التقليديين، لدرجة حرمان الشيخ المصلح الخضر حسين من الترقية بالجامع الأعظم، وهو الذي أصبح في ما بعد شيخ جامع الأزهر الشريف بمصر[13].

أسست الخلدونية معهد الحقوق العربي، ومعهد الفلسفة في خطوة لدعم التعليم ونشره، وفي 1947 أحدثت شهادة جديدة أُطلق عليها "البكالوريا العربية" بغية فتح المجال للطلبة للالتحاق بالجامعات المشرقية، وإمداد الجامع الأعظم بأساتذة مساعدين، ونظت تعليما ثانويا لذلك، ومع تطور الخلدونية ازداد لإقبال الطلبة إليها[14]، حتى أصبحت إدارة الزيتونة تنصب الأساتذة الخلدونيين بالجامع نظرا لكفاءتهم[15].

ساهمت الخلدونية في الحياة الفكرية والعلمية، والقضايا الوطنية والاجتماعية والدينية، وزرع أفكار الحداثة والتجديد مما جعل المنجي العيادي يعتبر الخلدونية بأنها المنطاد الذي حلق بالفكر التونسي في سماء التحديث والتجديد[16]، وهذا يعكس دورها الفعال إذ قال أحد المعمرين فيها:" إذا ما قُدر أن تندلع ثورة بالبلاد التونسية فإن هيئة أركان ثوارها تكون تخرجت من الخلدونية"[17]

وكان للخلدونية أثرا أيضا في ظهور جمعيات أخرى نذكر منها "جمعية قدماء الصادقية"،أو"جمعية قدماء المعهد الصادقي"، ظهرت هذه لأخيرة نظرا للإقبال المحدود بالجمعية الخلدونية، تأسست في 23 ديسمبر 1905، بمبادرة من علي باش حامبة[18]، و ترأسها خير الدين بن مصطفى[19] تهدف لدعم الحياة العلمية بتونس، وعصرنة التعليم وفتح باب النقاش وتكثفت اللقاءت التي كانت تعقدها و إلقاء المحاضرات في العلوم الطبيعية والمنتجات الزراعية والصناعية والرياضة والمسرح والموسيقى، وغيرها من الفنون، وقد استطاعت أن تنظم خلال سنةمن أفريل 1906 إلى أفريل 1907، 84 محاضرة سواء في مقرها أو بالأحياء، و الهدف من ذلككله هو الحفاظ على الفكر الصادقي التجديدي[20].

كما تأسست "جمعية تلامذة جامع الزيتونة" برئاسة محمد رضوان، ومن أعضائها بن عاشور، ثم كونوا جمعية أخرى باسم "الجمعية الزيتونية" تضم كذلك بن عاشور رئيسا، مع عضوية كل من: محمد رضوان، محمد النخلي، محمد الخضر حسين، والطاهر نيفر، وآخرين[21].

3. جهود علماء الزيتونة والسلطة التونسية في إصلاح التعليم:

اعتبر الثعالبي أن أخطر ما يواجه الواقع التونسي هو مسألة التعليم، لأن فرنسا تسعى جاهدة لفصل تونس عن انتمائها الإسلامي وفرنستها في شتى الميادين، وهذا ما تفسره مختلف القوانين والإجراءات كطبع قاموس اللغة العامية، وتمجيد فترة الاحتلال الثلاثي بالمنطقة (الروماني-الوندالي-البزنطي)، وهدفت السياسة التعليمية الفرنسية لخلق يد عاملة تونسية تصخر في خدمة المعمرين والاستعمار الفرنسي، وبالمقابل كذلك عزل القوى الوطنية المأثرة في الواقع السياسي والاجتماعي وعزلها بقيود الإهمال والبيروقراطية[22].

واستكمالا لما جاء من إصلاحات سواء ذات الطابع الرسمي، أو المبادرات التي جاءت من رجال الإصلاح، نقول، وعلى إثر تأسيس الجمعية الخلدونية تشكلت لجنة باقتراح من المقيم العام الفرنسي ريني ميللي (1894-1900) « MILLET RENE » لتنظيم الدروس بجامع الزيتونة وترتيب التعليم به، وتغير النمطية في

السرد وكثرة الشروحات التي تشوش على الطالب، لكن مشايخ الزيتونة كتبوا تقريرا رفضوا فيه المقترح الإصلاحي ذاكرين أن الأمة محتاجة لكل العلوم الشرعية، وأن هذه العلوم لا تقبل المزاحمة من الفنون الأخرى، فانتقد بن عاشور على الرد الذي جاء من زعماء التيار المحافظ قائلا:"...تلقاها شيوخ جامع الزيتونة بسوء ظن، وتخيلّوا أنها شركُ نُصب ليُبطَل به تعليم العلوم الإسلامية فصمموا على معارضته بتاتا بكل قواهم وتلك عادة عرفوا بها، يغلقون باب المباحثة ويقاومون كل طلب للإصلاح ولو كان صوابا"[23]

وإثر الحرب العالمية الأولى قدم الوزير الأكبر مصطفى دنقزلي[24] مشروعا عرض فيه مجموعة من الإصلاحات لتجاور النقائص بالتعليم الزيتوني، فنص على تقسيم التعليم الزيتوني إلى مراحل وتنظيم الامتحانات، وإدراج مواد جديدة وعصرية، وغيرها من الإجراءات، غير أن أن هذا المشروع اصطدم مرة أخرى بمعارضة المحافظين، وتخوف من الإدارة الاستعمارية، فتعطل المشروع لأسباب مجهولة ولسبب وفاة صاحبه كذلك[25]

غير أن المشروع الذي قدم الوزير المذكور كان واحد من أربع لجان عرفتها تونس خلال هذه الفترة تم تأسيسها لنفس الغرض وهي:

- لجنة 1898: تشكلت للنظر في إصلاح التعليم الزيتوني برئاسة الوزير الأكبر، وعلماء من الزيتونة ورجال من الدولة، أسفرت أشغالها عن تكليف الوزارة الكبرى بشؤون الجامع لإدارة المعارف.

- لجنة 1910: وهي اللجنة ثانية التي اجتمعت، ظهرت بعد نهوض التلاميذ أنفسهم مطابين بإصلاح التعليم الزيتوني، فتهيّء للأمر رجال العلم والإدارة وأضافوا فنونا جديدة وكتبا لابد منها،كل ذلك جاء في أمر 1912 والقاضي أيضا بتأسيس خمس فروع للزيتونة: القيروان، سوسة، صفاقس، قفصة، توزر، إلا أن هذه الفروع تعثرت لعدم الإعتناء بها.

- لجنة 1924: كانت هذه اللجنة الثالثة برئاسة مصطفى دقنزلي، وقد سبق الحديث عنها، سعى لتعديل القانون السابق(1912) وتحويره وإدخال مواد جديدة عيه، غير أن تلك الأعمال تعطلت لأسباب مجهولة كما قلنا.[26]

- وفي 1928: صدر قانون في شهر ديسمبر يقضي بتنظيم مهنة العدول الموثقين وإيجاد إمتحانات للتحصيل على رخصة الإنتصاب لها، وهي من أكثر المهن إرتباطا بالتعليم الزيتوني، فثار الزيتونيون في وجه هذا القانون، وعاودوا مطالبتهم بالإصلاح وأعلنوا إضرابا إمتد لأكثر من شهر ووجت دعوتهم صدى واسعا في الرأي العام، وأيدتهم الصحف وتضامنت معهم مختلف الهيئات.[27]

- لجنة 1930: وتم تأسيسها لنفس الغرض، ولكن عليها أن تحقق مساعيها بعد أن أصبحت ساحة للصراع العنيف بين المحافظين على رأسهم الوزير الأكبر خليل بوحاجب وشيخ الإسلام أحمد بيرم، الذين يرون

أن أي محاولة لإصلاح الهوية وواقع التعليم هو رهن بإبقاء حالة التعليم الزيتوني على حاله، وبين التيار الإصلاحي على رأسهم بن عاشور الذين تمسكوا بفكرة ضرورة تغيير التعليم الزيتوني وإصلاحه.[28].

5. آراء وجهود الشيخ الطاهر بن عاشور حول إصلاح التعليم الزيتوني:

خصص بن عاشور كتابا كاملا لإصلاح التعليم بتونس سماه بـ"**أليس الصبح بقريب**" فصل فيه أسباب التأخر ومواطن العلل في التعليم الزيتوني، و لاسيما قضيت التمسك بالقديم والتقليدي، دون تطلع للعلوم العصرية يقول:" **واعلم أنّا متى اقترضنا في تعليماتنا على ما أسسه لنا سلفنا ووقفنا عند ما حددوا ... اقتصارنا على ذلك لا يؤهلنا إلا للحصول على بعض ما أسسوه، وحفظ ما استنبطوه..."**[29] ويقول:" **تبدلت العصور وتقدمت العلوم وطارت الأمم، ونحن قعيدو علومنا وكتبنا، كلما أحسسنا بنبأة التقدم والرقي وتغيير الأحوال استميكنا بقديمنا وصفدنا أبوابنا فإنك لتنظر الرجل وهو بن القرن الرابع عشر فتحسه في معارفه وعلمه وتفكيره من أهل القرن التاسع أو العاشر**"[30]

بعد فشل مشروع لجنة 1930 بسبب الصراع بين الأطراف المذكورة انتقل هذ الخلاف إلى الرأي العام وأصبحت الزيتونة فترة الثلاثينات ساحة للنزاعات الفكرية والثقافية والسياسية والدينية وهدفا للرهانات المتضاربة[31]، وكانت إدارة الجامع تتكون من هيئة علمية تسمى بـ"**النظارة العلمية**" حيث كانت هي بؤرة النزاعات الفكرية منذ أن أصبح بن عاشور عضوا فيها في 1913 بسبب أفكاره التي لم تلائم أغلبية شيوخ الجامع وموظفين وإداريين يتزعمهم شيخ الإسلام أحمد بيرم والوزير الأكبر خليل بوحاجب في المقابل يناصر بن عاشور الأقلية من الزيتونيين أهمهم المفتي المالكي الشيخ محمد العزيز جعيط، فانتقل الصراع كما قلنا للرأي العام وتناولته الأقلام الصحفية وأيدت جريدة "**النهضة**" تيار بن عاشور في حين وقفت جريدة "**الزهرة**" في وجهها مؤيدة الوزير الأكبر وشيخ الإسلام وانضم الوطنيون الدستوريون لجريدة النهضة وكانوا يكتبون فيها مقالاتهم تأييدا لتوجهها الإصلاحي، وأيد الشاذلي خير الله عبر جريدته الناطقة بالفرنسية "**صوت التونسي**" موقف أنصار الإصلاح، وتواترت مظاهرات الطلبة وإضراباتهم إلا أن كفة الصراع في الأخير ستميل لصالح بن عاشور ورفقائه بعد استقالة الوزير الأكبر وشيخ الإسلام في مارس 1932 وأصبح الطاهر بن عاشور شيخا للجامع الأعظم وفروعه منذ سبتمبر 1932.[32]

بدأ الشيخ في تخطيط سبل الإصلاح وتطبيقها رغم كل العراقيل والصعوبات، غير أنه اضطر للاستقالة بسبب القلاقل والتي ظهرت دون تروي، وأُتهم الشيخ باطلا في اتخاذ مواقف فيما يسمى بقضية التجنيس -كما سبق ذكره-، وهي فتوى اصطنعتها جهات معينة لأسباب سياسية بحتة، وكانت ذريعة للمحافظين من أعيان الزيتونة فشجعوا المدرسين والطلبة على التشويش والشغب وتم تعويض الشيخ بصالح المالقي على رأس إدارة الجامع وفروعه، ثم بعد اشيخ محمد جعيط الذي تولاه إلى غاية 1943[33]، غير أن الشيخ عاد لمنصبه هذا في فيفري 1945، و أقيمت على شرفه حفلة نظمتها الجمعية الخلدونية -الإبن البار للزيتونة-، وكله عزم على تغيير الوضع وإصلاح ما خرب من الواقع التعليمي، علما منه أن الزيتونة هي

الدار تصنع فيها كل إطارات البلاد، وهذا ما كانت تعتبره الصحافة الوطنية التونسية، بجعل العنصر الزيتوني هو العنصر القومي النير الذي تجده في الندوات واللقاءات والمظاهرات وأينما نظرت[34].

من إصلاحات بن عاشور بالجامع أن جعل فروع جامع الزيتونة تحت مراقبة إدارة مشيخة الجامع، بعدما كانت ترجع شؤونها إلى السلطة الشرعية الجهوية، ووفر لها إمكانية تنظيم امتحان الأهلية فانتعشت هذه الفروع انتعاشا كبيرا بعد أن بدأ الشيخ يهتم بها اهتماما مباشرا، وزاد الشيخ في عدد الفروع الزيتونة فأصبح عددها 25 فرع في مدة سبع سنوات(1949-1956) منها فرعين للفتيات في تونس وصفاقس، وهذا بعد أن كانت ثماني فروع فقط، ليبلغ عدد التلاميذ نحو العشرين ألف تلميذ في حدود 1956، كما امتدت يد الزيتونة إلى الجزائر أيضا حيث تم إنشاء فرعين في قسنطينة[35].

هذا ولم ينحصر الدور الإصلاحي للشيخ على البرامج والهياكل التعليمية فقط بل عمل أيضا على تحسين ظروف الطلبة يقول: " **ونحن إذا التفتنا إلى الحالة الحيوية التي عليها طلبة المعهد الزيتوني نرى فيها من الحرمان والخصاصة والاضطراب أشياء لا يمكن أن يبلغ التعليم حد الإصلاح لمطلوب له إلا بعد تلاقيها، فإن العدد الأكبر منهم يقدمون على تونس مغتربين عن أوطانهم في سبيل طلب العلم ومن هذه الكثرة التي ينيف عددها عن الألفين وخمسمائة تجد نحو النصف مأوى في بيوت المدارس التي تعاقبت علة تأسيسها أيدي رجال الخير من عهد الدولة الحفصية إلى الآن ... منأجل ذلك توجهنا اليوم بعرض هذه الحاجة على مجمعكم الزكي رجاء أن تضيء أراؤكم المشرقة الغاية المأمولة...بإقامة مأوى لطلبة الجامع** "[36] ، وكما بينه خطاب الشيخ، فقد سعى هذا الأخير إلى إيجاد مأوى للطلبة وهو ما سمي بالحي الزيتوني، و أسس له لجنة تسعى لتحقيقه ترأسه شيخ الإسلام المالكي محمد العزيز جعيط، وبعضوية حمدة الشريف أحد أئمة الجمع، والشيخ محمود محسن،؛ والسيد طاهر بن عمار كاهية المجلس الكبير، والسيد بكار الخلصي مدير التعاضد المالي والشيخ طيب رضوان والشيخ محمد الزغواتي والشيخ محمد المنستيري[37]، والتفت التونسيون حول المشروع وتبرع المحسنون بالأموال وسعت اللجنة على تحصيل الإعانة من الدولة حتى تحققت الأمنية ببناء الحي الزيتوني خارج باب سيدي عبد الله سنة 1952[38].

4.خاتمة:

في الأخير كان الجامع الأعظم بمثابة العرين الحامي للثقافة والهوية التونسية، هذا الأمر جعل جموع المصلحين يبذلون طاقاتهم في إصلاحه وتطويره وحمايته من السياسة الاستعمارية المتربصة بالتعليم، فكان ما كان من إصلاحات القرن التاسع عشر التي قادها الشيخ خير الدين التونسي والبايات الثلاث "أحمد و محمد والصادق"، ثم تواصلت الإصلاحات مع القرن العشرين فتأسست الجمعية الخلدونية لهذا الغرض وعقبها عدة جمعيات أخرى جاءت كدعامة للتعليم الزيتوني، وبرز في الساحة الشيخ طاهر بن عاشور من خلال كتاباته ودعواته إضافة لمناصبه المرموقة في الدولة فعرفت جهوده بعدا عمليا ملموسا.

غير أن دعاة الإصلاح واجهوا عدة صعوبات في تحقيق هذا الأمر أبرزها تمسك التيار المحافظ بكل ما هو قديم والسعي لإفشال المشروع الإصلاحي، هذا من جهة، ومن جهة أخرى أيضا كان للحماية مساعي لفصل التونسيين عن العلوم العصرية والدينية وحصرهم في إيطار الفنون المهنية التي تحقق يد عاملة مسخرة لخدمة المعمرين، هذا الفصل لا يتحقق إلا بعرقلة عملية التعليم عامة، والمشروع الإصلاحي التعليمي خاصة.

6.المراجع

[1] **محمد الحبيب ابن الخوجة:** (24 أكتوبر 1922- 17 جانفي 2012) علامة تونسي، شغل منصب مفتي الديار التونسية في فترة الرئيس الراحل الحبيب بورقيبة، وكان أول أمين عام للمجمع الفقه الإسلامي بجدة، أخذ العلم على يد علماء جامع الزيتونة كالعلامة الطاهر بن عاشور وسافر إلى باريس ودرس الآداب العربية، ونال شهادة الدكتوراه من جامعة السوربون عام 1964. ترك مؤلفات عديدة تعالج عددا من القضايا المعاصرة، كان ذو توجه إسلامي تجديدي، خلّف محمد الحبيب بلخوجة كتبا عديدة منها "مواقف الإسلام"، تناول بعض القضايا المعاصرة من وجهة نظر الإسلام، و"التنبيهات على المدونة لابن عياض"، و"تراجم المحدّثين والعلماء" و"يهود المغرب العربي".ينظر: "**محمد الحبيب بلخوجة**" موقع الجزيرة، 02-03-2015، https://www.aljazeera.net/encyclopedia/2015/3/2 تاريخ ووقت الدخول:17-07-2023، على الساعة 20:14.

[2] محمد الحبيب بن خوجة، شيخ الإسلام الإمام الأكبر محمد الطاهر بن عاشور، ج1 محمد الطاهر بن عاشور وكتابه مقاصد الشريعة الإسلامية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، 2004، ص: 209.

[3] أحمد الطويلي، **اصلاح التعليم في تونس بين الزيتونة والصادقية**، مداخلة ضمن أعمال الملتقى حركة الإصلاح بتونس 1837-1934، يوم 19 نوفمبر 2016، جمعية تونس الفتاة ومؤسسة كونراد أديناور،تونس العاصمة، ص - ص:6-7.

[4] نفسه، ص،ص:7، 10.

[5] نفسه، ص:10.

[6] قاسمي الطاهر، مشروع النهضة في المغرب العربي 1867-1954، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه بجامعة الجيلالي اليابس، سيدي بلعباس(الجزائر)، تخصص تاريخ حديث ومعاصر، 2017-2018 ص:191.

[7] محمد بوطيبي، **الجمعية الخلدونية التونسية، بين الرمزية التاريخية والمشروع العلمي التونسي**، مجلة آفاق فكرية، ، م4، ع9، جامعة الجيلالي اليابس سيدي بلعباس، أكتوبر 2018 ، ص:28

[8] أحمد الطويلي، المرجع السابق، ص:14.

[9] **شهادة التطويع** : هي شهادة يحصل عليها الطالب الزيتوني بعد اجتيازه امتحانا في عدة مواد، وهي آخر ما يحصل عليه الطالب، يكون الامتحان شفويا وكتابيا، وتطبيقيا في ثلاثة أيام، لتفاصيل أكثر حول الموضوع ينظر:محمد خير الدين، مذكرات الشيخ محمد خير الدين، ج1، مطبعة دحلب، الجزائر، 1985، ص-ص:76-77.

[10] محمد الطاهر بن عاشور، أليس الصبح بقريب، التعليم العربي الإسلامي دراسة تاريخية وآراء إصلاحية، دار السلام، القاهرة- مصر، ط1، 2006 ص،ص: 91، 98، 99.

[11] علي المحجوبي، جذور الحركة الوطنية التونسية 1904-1934، تر: عبد الحميد الشابي، بيت الحكمة، تونس، 1999، ص-ص:130-131.

[12] نفسه، ص131.

[13] محمد بوطيبي، المرجع السابق، ص:32.

[14] محمد الفاضل بن عاشور، الحركة الأدبية والفكرية في تونس، مطبعة دار...، 1956، ص:207.

[15] شمس الدين زراري، الحركات الإصلاحية المغاربية وأثرها في الفكر الثوري التحرري 1920-1956، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ المعاصر، جامعة باتنة، 2020-2021، ص:230.

[16] محمد بوطيبي، المرجع السابق ، ص:34

[17] قاسمي طاهر، المرجع السابق، ص:34.

[18] **تعريف علي باش حامبة**: (1879-1918)، بن مصطفى بن علي الشريف بش حمبة، التونسي المولد التركي الأصل، مؤسس حزب "تونس الفتاة"، تعلم بالزيتونة ودرس الحقوق بباريس، وعاد محاميا لبلاده دعا لتحرير تونس من الحكم الفرنسي، ووحدة المغرب العربي، كان يجيد عدة لغات، أصدر

عدة صحف أولها "التونسي" 1907، تم نفيه إثر مواقفه المناهضة للاحتلال الإيطالي لطرابلس، فتوجه للأستانة وتقلد بها عدة مناصب حكومية وبقي على إتصال بالمناضلين بتونس إلى أن توفي. ينظر: خير الدين الزركلي، الأعلام، ج5، دار العلم للملايين، بيروت-لبنان، ط1، 2002، ص:22.

[19] **خير الدين من مصطفى**: (1867-1965) من عائلة مماليك درس في المعهد العلوي ودعا لتدريس لبفرنسية يالمعهد الصادقي، كان مدرساً وشغل وظيفة مترجم عدلي لدى الحكومة المختلطة، ثم انضم إلى هيئة تحرير جريدة التونسي، شارك في 1908 في مؤتمر إفريقيا الشمالية. ينظر: علي المحجوبي، المرجع السابق، ص: 132.

[20] علي المحجوبي، المرجع السابق، ص-ص: 131-132. ينظر كذلك:

Julien Charles-Andr, **Colons français et Jeunes-Tunisiens (1882-1912**), revue française d'histoire d'outre-mer, tome 54, n°194-197, Année 1967, p121.

[21] أحمد الطويلي، المرجع السابق، ص:18.

[22] قاسمي طاهر، المرجع السابق، ص - ص: 192-193.

[23] أحمد الطويلي المرجع السابق، ص-ص:15-16

[24] **مصطفى دنقزلي**:(1865-1926) ولد بتونس من أصول تركية درس بالصادقية وتم إرساله في 1844 مع محمد الأصرم للدراسة بفرنسا وتخرج من مدرسة ترشيح المعلمين بفرساي سنة 1887، رجع لبلاده بعدها ودرّس بالمدرسة لصادقية لمدة ثلاث سنوات، ثم بالمدرسة الخلدونية، عمل ايضا مترجما بالإدارة وتدرج في عدة مناصب إلى أن أسندت إليه الوزارة الكبرى في ماي 1922 واستمر فيها لغاية وفاته. ينظر: أسامة الراعي، **مصطفى الدنقزلي سياسي تونسي أسندت له الوزارة الكبرى من 1922إلى 1926** ، جريدة الحدث الإلكترونية، 23 أكتوبر 2020، https://www.culture-news.tn/wp/?p=12952 ، تاريخ الدخول: 18-07-2023 على الساعة 23:24.

[25] شمس الدين زراري، المرجع السابق، ص :226.

[26] محمد العزيز بن عاشور، جامع الزيتونة المعلم ورجاله، دار سراس للنشر، تونس، 1991، ص:115. ينظر أيضا: محمد المختار بن محمود، **جامع الزيتونة من أقدم الكليات العلمية في العالم و أكثرها إنتاجا، فما هي مهمته وهل هو قائم بها؟**، مجلة الزيتونة، م2، ج2، نوفمبر 1937، ص-ص: 50-53.

[27] محمد الفاضل بن عاشور، المرجع السابق، ص-ص:152-153.

[28] محمد العزيز بن عاشور، المرجع السابق، ص:115.

[29] محمد الطاهر بن عاشور، أليس الصبح بقريب، المرجع السابق، ص :155

[30] أحمد الطويلي المرجع السابق، ص:17

[31] شمس الدين زراري، المرجع السابق، ص :228

[32] محمد الفاضل بن عاشور، الحركة الأدبية والفكرية ...، المرجع السابق، ص- ص: 152-154.

[33] محمد العزيز بن عاشور، المرجع السابق، ص- ص: 121-122.

[34] محمد الفاضل بن عاشور، المرجع السابق، ص: 205.

[35] محمد العزيز بن عاشور، المرجع السابق، ص: 122.

[36] **خطاب الأستاذ الإمام في اللجنة العامة للجنة االحي الزيتوني**، المجلة الزيتونية، م6،ج2، 3، ص:439-440.

[37] محمد العزيز بن عاشور، المرجع السابق، ص:123.

[38] نفسه، ص: 123.